موازنة وتحليل :

شاعران سجينان ..!

للأستاذ محمد رجب البيومى

نحن الآن أمام شاعرين قذف بهما إلى غياهب السجن ، ورسفا فى القيود والأصفاد قدرا من الزمان ، فلجأ كلاهما إلى القريض يبثه وجده ، ويطارحه أساه !

والسجن رهيب موحش ، ترتعد له الفرائص ، وتقشعر منه الأبدان ، وكما يفزع الأسد المكبل فى قفصه الحديدى ، فكذلك يفزع الشجاع الصنديد حين يهاجمه الظلام فى بقعة لا يراوحها الهواء ، وأفزع منه الشاعر المرهف ، ذو العاطفة المشبوبة ، والوجدان المضطرم ، فهو من إحساسه فى عذاب أى عذاب ! وانظر إلى الطائر الغريد يخطف من أيكته الملتفة ، ويحبس فى الأسلاك المتشابكة ، مقصوص الجناح ، ثم ابعث عليه الحسرات !

ولن نفكر اليوم فى سجوننا المستحدثة بالقرن العشرين ، فهما بولغ فى إيحاشها وتضييقها ، فهى نظيفة محترمة تدرج فيها الشمس ، ويمر بها النسيم ، وليست كالسجون العباسية التى حبس بها الشاعران اللهيفان ، إذ كانت نقمة من نقم الله ، فهى لا تحتوى على منافذ أو مقاعد ، ولكنها فى الغالب سراديب متوغلة ممتدة فى أعماق الأرض ، يوضع فيها الأحياء كما يدفن الموتى فى اللحود ، وهى على ظلامها الدامس ، حافلة بما يخيف من الأفاعى والهوام ، وقد لا يجد السجين من المكان غير ما يسمح له بالجلوس وحده ! والويل له إن وقف أو سار ! بل قد يمكث السجين طيلة نهاره فلا يجيئه السجان غير دقيقة واحدة ، يقذف له بفتات الطعام وآسن الشراب ، وهو مع ذلك يتلهف على لقائه ، إذ هو رسول الأحياء إلى الأموات !

وقد قدر لعلى بن الجهم أن يكون نزيل السجون مدة طويلة فانقلب إلى الظلام الوحش ، بعد أن نادم المتوكل فى قصر الخلافة أمدا طويلا ، ونهل من النعيم والمسرة مالا يقدر بثمن ، وجلس على بساط السمر يحتسى الكؤوس ويعابث القيان ، وتلك حياة أشبه بالأحلام !

لقد كان بن الجهم خبيث اللسان ، فاحش الهجاء ، وقد تعددت وشايته إلى الخليفة بأصحابه حتى تيقن افتراءه ودسه فعاقبه بالسجن ليردع ، وينزعه من أفواه البهجة ومطارف النعيم ، ونظر الشاعر فإذا السنة السوء تلوك حديثه فى كل مكان ، فتزيد عليه ما يكابد من الغصص والأشجان . وقد استعطف المتوكل بقصائد باكية ، فما نالت من قلبه المريض أى منال ، حتى توهم أن السجن قد أصبح مقره الدائم ، أبد الحياة . هذا وأقوال الشامتين الساخرين تصل إليه فى معتقله فتمزق نياط قلبه وتخرق مسامعه فاذا يصنع لإسكات هؤلاء وقد صد عنه الخليفة أعنف صدود وأقساه ! موقف محزن حقا ! وحالة تبعث الرحمة والإشفاق ! وقد رأى ابن الجهم أن يظهر ارتياحه لمحبسه ، وقبوله إياه ، فى شعر يبعث به إلى الشامتين ليقصروا ألسنتهم عنه ، فنظم هذه القصيدة التى نعرض لها الآن ، ذرا للرماد فى الآماق ، وتجلدا على نوائب الأيام !

ومضت الأيام وخرج الشاعر من السجن ، وبقيت قصيدته عزاء يندى على المرزوئين بالسجون بعد ذاك ، فكانت الأنشودة التى يترنم بها هؤلاء المعذبون فى ظلماتهم القاتمة .. ثم رمى الدهر بعاصم بن محمد الكاتب العباسى إلى السجن فرأى من أهواله ما أقض المضجع ، وأضرم الشجون . وقد كان يحفظ قصيدة ابن الجهم فرددها فى نفسه ، مرات ومرات ، وأيقن أنها لا يمكن أن تعبر عن عواطف السجناء بحال ، فهى وإن حفلت بأساليب العزاء والاستسلام ، تجافى الواقع الصريح أعنف مجافاة ، فاندفع ينقضها بقصيدة تضع الحق فى نصابه أمام الناس . وها نحن أولاء نوازن بين القصيدتين ! لنرى أى الشاعرين أصاب حظا من التوفيق والإبداع

لقد كان ابن الجهم يعتقد أنه مقبل على أكاذيب فاضحة ، فهو يدافع عن قضية خاسرة لا تجد الناصر المعين ، ومن ذا يحبذ السجون من العقلاء ؟ لذلك نجده يقمع عواطفه فلا يسمح لها بالظهور فى مطلع قصيدته ، ويستهدى بعقله الناصح فيهديه إلى غرائب التشبيه ! وفى التشبيه مجال فسيح للتلفيق والتنميق ، حيث

ينسى القارئ عادة ما بين المشبه والمشبه به من فروق ، ويلهيه وجه الشبه الواضح عما هناك من أبعاد ، وإذ ذاك يجد الشاعر الفرصة مواتية لما يريد أن يقنع به الناس

إن الخيال الزاخر بالتشبيه ليحلق بابن الجهم في أجوائه البديعة فيرى السيف الصارم يغمد في جرابه بعد التجريد ، ويلمح الليث الواثب يربض في غيله الأشب فلا يتردد في الآفاق كما تتردد صغار الوحوش ، ويشاهد البدر المتألق يحتجب وراء الظلام فترة محدودة ثم يضئ واضح القسمات ! كما يعلم أن النار المضطرمة تسكن في الحجر حتى يقدحها الزناد ، والرمح القاتل تتناوله الأكف بالتثقيف وتلهبه النار حتى يستقيم ، فإذا ما حجبه السجن بعد ذلك عن العيون ، فله في السيف والليث والبدر والرمح والنار عزاء أي عزاء وأي عيب على الرجل إذا كان كالليث الصائل ، والنار المضطرمة ، والسيف البتار !

هذا منطق عجيب ، وأعجب منه أن يقنع الشاعر بوجاهته وسلامته فأخذ بتلابيبه ليقول :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري ... حبسي وأي مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله ... كبرا وأوباش السباع تردد
والبدر يدركه الظلام فتنجلي ... أيامه وكأنها تتجدد
والنار في أحجارها مخبوءة ... لا تصطلي إن لم تثرها الأزند
والزاعبية لا يقيم كعوبها ... إلا الثقاف وجذوة تتوقد

فهل رأيتم ما فعل التشبيه ؟ لقد كاد أن يجعل السجن أملا باسما تحلم به العيون في غفلات الرقاد ، ولكنه لن يمحو الواقع الأليم ، فالسجن جحيم لا يطاق !

إن عاصماً الكاتب ليقرأ الأبيات ثم يقرنها بما يكابده في السجن من ويلات ، فيرى أن كلام ابن الجهم يحتاج إلى تصحيح صريح ، ولن يكون هذا إلا من شاعر قادر يدحض الحجة ويقيم الدليل ! فمن يكون ذاك ؟

لقد اعتمد ابن الجهم على التشبيه ، فليأته عاصم منه ، لينازله بسلاحه في حلبة البيان ، وهنا يظهر الحق للعيان

وسيقف القارئ على المناحة الصاخبة التي تولول في أعماق عاصم حين يجده يصرخ في مطلع القصيدة بقوله :

قالوا حبست فقلت خطب أنكد ... أنحى علي به الزمان المرصد
لو كنت كالسيف المهند لم يكن ... وقت الكريهة والشدائد يغمد
لو كنت كالليث الهصور لما رعت ... فيّ الذئاب وجذوتي تتوقد
تمضي الليالي لا أذوق لرقدة ... طعما وكيف يذوق من لا يرقد
في طابق ، فيه النهار مشاكل ... لليل والظلمات فيه سرمد
فإلى متى هذا الشقاء مؤكد ... وإلى متى هذا البلاء مجدد

ولك أن تقرأ هذه الأبيات مرة ثانية ، فستجدها تخاطب الشعور وتتجه إلى الإحساس ، فتلتاع لها العاطفة ، وسر ذلك ما تزخر به من الصدق والإخلاص

لقد كان الخيال الذي حلق به ابن الجهم ضعيف المنة ، قصير الجناح ، فالأسير الحبيس ليس كالسيف أو الليث في شيء ، وإلا فكيف يغمد السيف لدى الكريهة النائبة ، وما خلق إلا ليمزق الأشلاء ، ويسفح الدماء ! وكيف يغضي الليث عما ينوشه من الثعالب والذئاب ، وهي التي ترهب سلطانه الجبار ! هذا ما فطن إليه عاصم ، فاندفع ينقض أبيات صاحبه ، ومعه الحق في دعواه

ولكن لم يستطرد الشاعر فينقض التشبيه بالبدر والنار ، كما نقض التشبيه بالسيف والليث ؟ وذلك حتم أكيد عليه ، لأن الشاعر الناقض غير الشاعر المعارض ، فإذا قنعنا من المعارض بالتصوير الكلي ، فلن نرضى من الناقض بغير الاستقصاء والثبات ، ومثل من يعارض في شعر تقوله كمن يبني قصرا جوار قصرك ، فهو لا يتقيد بأسلوبك ونظامك في البناء ، وما عليه إلا أن يحدث بناء تشرئب إليه الأعناق ، أما الشاعر الناقض فلا يبني بيتا جوار بيت ، ولكنه يهدم في صرح مشيد ، فعليه ألا يترك به من القاصر شاخصة للأبصار !

ولقد صور عاصم ظلام السجن أو تشابه ليله بنهاره ، وتأفف من غياهبه السرمدية ، وشقائه المؤكد ، وهو كلام لن تجد نظيره عند صاحبه ، لأن الأول ثائر ناقم يذيع الفضائح والمنات ، والثاني قانع راض يلتمس المحامد في كل مجال

ثم ماذا بعد ذلك ؟

لقد لجأ ابن الجهم إلى الأسلوب الخطابي في تدليله ، ولا عليه ، فهو شاعر يستحث العاطفة ويخاطب الشعور ، وقد وجد السجين يلزم حبسه كما يلزم الكريم بيته ، ويزوره الناس في غياهبه دون أن يزور أحدا في رحابه ، شأن العظماء المترفين ،

فلم لا تحمد السجون على هذا التكريم العجيب ! ! ذلك رأى يعلنه ابن الجهم إذ يقول :

والحبس ما لم تغشه دنية   شنعاء ، نعم المنزل المتردد
بيت يجدد للكريم كرامة   ويزار فيه ولا يزور ، ويحمد

وهذا كلام مردود لا يقره عاصم ، وقد شهد فى محبسه كل مذلة وهوان ، ومتى استراح السجين لزواره ، وهم ما بين شامت يبدى التوجع ، ويضمر السرور ، وصديق يذرى الدموع ، ويرسل الزفرات ، وهذا كذلك ، يوقد الشجى فى الضلوع ، بزورته ! وقد عرف عاصم ذلك فاندفع يقول :

ما الحبس إلا بيت كل مهانة   ومذلة ومكاره لا تنفد
إن زارنى فيه العدو فشامت   يبدى التوجع تارة ويفند
أو زارنى فيه الحب فموجع   يذرى الدموع بزفرة تتردد

وواضح أن ابن الجهم يعترف بهذه الأبيات فى أطواء نفسه ، ولكنه يلفق الأدلة الوهمية كبتا للشامتين ، ونحن نرفع شاعريته حين نعلم أنه يتصيد المحامد للقفر الموحش ، وذلك مسلك وعر تتعثر فيه القرائح الجياد ، أما صاحبه فيصف ما يرى فى القفر الجديب من قسوة وجفاف ، فهو يسير مع التيار ، ولا يقف فى وجهه متحديا العقبات والصعاب !

وقد تعجب لعلى حين ينسى موقفه الدفاعى ، وتطغى عاطفته على عقله ، فيرجو الفرج القريب ، ويأمل الرخاء بعد الشدة :

فلكل حال معقب ولربما   أجلى لك المكروه عما تحمد

قد تعجب لذلك منه وتأباه ، إذ أن المتريع فى محبسه لا يجب أن يفوه بما يشير إلى الضجر والسخط ، ولكن الحق ظافر غالب ، وقد عجز الشاعر أن يتنكر لعواطفه إلى آخر الشوط ، فعمد إلى إرضائها والترويح عنها ، وهو بذلك يلتقى مع صاحبه عاصم فى مأساة واحدة ، وخطب مشترك ، فلا مجال للمناقضة بعد ذلك ، وقد ذهبا معا يتوسلان ويعتذران ، عسى أن يصيبهما حظ من الصفح والغفران

ولقد كان ابن الجهم بليغا فى اعتذاره ، متفوقا على صاحبه ، فهو يدعو إلى النصفة والسداد ، ويود لو اجتمع فى مجلس واحد مع خصومه أمام الخليفة ليدحض الحق الباطل ، إذ ليس من العدالة أن يتحكم القاعد فى الغائب فيوغر عليه الصدور وينهشه ما استطاع ، اسمعه يقول

أبلغ أمير المؤمنين ودونه   خوف العدا ومهامه لا تنفد
إن الذين رموا إليك بباطل   أعداء نعمتك التى لا تجحد
شهدوا، وغبنا عنهمو فتحكموا   فينا ، وليس كغائب من يشهد
لو يجمع الخصماء عندك مجلس   يوما ، لبان لك الطريق الأرشد
والشمس لولا أنها محجوبة   عن ناظريك لما أضاء الفرقد

والبيت الأخير ممتاز رائع ، وهو فوق إقناعه السديد يدل على ما يعتقده الشاعر فى نفسه من سمو وسموق ، ونحن نستطرف قوله :

شهدوا، وغبنا عنهمو فتحكموا   فينا ، وليس كغائب من يشهد

إذ ينبئ عن الظلم القادح الذى لحق الشاعر بابتعاده عن مقارعة الوشاة ، وقد ذيل البيت بحكمة صادقة تضمن له البقاء

أما عاصم فقد نهج نهجه فى الزلفى ، وراح يتحدث لسيده معتذرا معاتبا ، ويحوم على أفكار صاحبه إذ يقول عن وليه

غذيت حشاشة مهجتى بنوافل   من سيبه وصنائع لا تجحد
عشرون حولا عشت تحت جناحه   عيش الملوك وحاجتى تتزيد
فخلا العدو بموضعى فى قلبه   فحشاه جمرا ناره تتوقد
فاغفر لعبدك ذنبه متطاولا   فالحقد منك سجية لا تعهد

وهذه أبيات لا تقترن بالأبيات الأولى فهى خالية من القوة والتأثير ، وإن رافقتها فى بعض المعانى فضلا عن الغرض العام . ولست أستطيب كلمة الحقد فى البيت الأخير ، فهى أبعد ما تكون عن المقام ، إذ لا يليق أن يوصف بها إنسان يعتذر إليه ويتزلف عنده ، هذا إلى القوافى المتكرهة التى ألصقت إلصاقا بالأبيات !

ولن نختم الحديث عن المقطوعتين قبل أن نجمل الموازنة بينهما فى أسطر محدودة . فنقرر أن أسلوبهما سلس رقيق ، وأن عليا رغم وعورة مسلكه ، وتحديه لشعوره وعواطفه ، قد هدى عاصما إلى ما نظمه من المعانى ، وفتح عليه بما لم يكن يخطر له على بال ، كما ارتفع عنه حين سارا معا فى الاعتذار والعتاب فجاء بما لم يتطاول إليه عاصم ، وإن كنا نأخذ على الشاعرين معا ضيق الأفق ، وقصر النفس ، وسذاجة التفكير ، رغم اتساع المجال ، وفى ذلك بلاغ

محمد رجب البيومى